



قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: {وَأَعْتَرِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيقاً} [مريم:48]

{عَسَىٰ أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيقاً} أي رجائي في ربي كبير أن لا أشقي بعبادته كما شقيتم أنتم بعبادة الأصنام.

قال تعالى مخبراً عنه فلما حرق ما واعدهم به من هجرته لديارهم إلى ديار القدس تاركاً أباه وأهله وداره كافأه بأحسن حيث أعطيناه ولدين يأنس بهما في وحشته وهم إسحاق ويعقوب وكل منهما جعلناه نبياً رسولاً.

ووهبنا لجميعهم وهو ثلاثة الوالد إبراهيم ولداته اسحاق ويعقوب بن اسحاق عليهم السلام من رحمتنا الخير العظيم من المال والولد والرزق الحسن هذا معنى قوله تعالى: {فَلَمَّا اعْتَزَلُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} وهو ابن ولده اسحاق {وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَنَا}.

وقوله تعالى عنهم: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْهِ} هذا إنعام آخر مقابل الهجرة في سبيل الله حيث يجعل الله تعالى لهم لسان الصدق في الآخرة فسائل أهل الإيمان الإلهية يتذلون على إبراهيم وذراته بأطيب الثناء وأحسناته وهو لسان الصدق العلي الرفيع الذي حظي به إبراهيم ولديه إكراماً من الله تعالى وإنعاماً عليهم جزاء صدق إبراهيم وصبره وبالتالي هجرته للأصنام

ولما أمره بهجره الزمان الطويل أخبره بأنه يتمثل أمره ويعزله وقومه ومعبداتهم، فهاجر إلى الشام قيل أو إلى حaran وكانوا بأرض كوثاء، وفي هجرته هذه تزوج سارة ولقي الجبار الذي أخدم سارة هاجر، والأظهر أن قوله {وأدعوا ربى} معناه وأعبد ربى كما جاء في الحديث: «الدعاء العبادة» لقوله {فلما اعزّلهم وما يعبدون من دون الله} ويجوز أن يراد الدعاء الذي حكاه الله في سورة الشعرا {رب هب لي حكماً إلى آخره، وعرض بشقاوتهم بداع آلهتهم في قوله {عسى أن لا أكون بداع ربى شقياً} مع التواضع لله في كلمة {عسى} وما فيه من هضم النفس.

وفي {عسى} ترج في ضمنه خوف شديد، ولما فارق الكفار وأرضهم أبدله منهم أولاداً أنبياء، والأرض المقدسة فكان فيها ويتعدد إلى مكة فولد له إسحاق وابنه يعقوب تسلية له وشدّاً لغضده، وإسحاق أصغر من إسماعيل، ولما حملت هاجر بإسماعيل غارت سارة ثم حملت بإسحاق.

وقوله {من رحمتنا} قال الحسن : هي النبوة. وقال الكلبي: المال والولد، والأحسن أن يكون الخير الديني والدنيوي من العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة.

ولسان الصدق: الثناء الحسن الباقي عليهم آخر الأبد.

قاله ابن عباس، وعبر باللسان كما عبر باليد مما يطلق باليد وهي العطية(2).

{عسى ألا تكون بداع ربى شقياً} أي: عسى ألا أشقى بعبادته.

أو: لا أخيب في طلبه، كما شقيتم أنتم في عبادة آلهتكم وخبتم.

ففيه تعریض بهم، وفي تصدير الكلام بعسى من إظهار التواضع وحسن الأدب، والتنبية على أن الإجابة من طريق الفضل والكرم، لا من طريق الوجوب، وأن العبرة بالخاتمة والسعادة، وفي ذلك من الغيوب المختصة بالعليم الخبير ما لا يخفى.

(3) {عسى ألا تكون بداع ربى شقياً} فيه من الدلالة على مزيد أدبه عليه السلام مع ربه عز وجل ما فيه، ومقام الخلة يقتضي ذلك فإن من لا أدب له لا يصلح أن يتخذ خليلاً. (4) {عسى ألا أكون بداع ربى شقياً} أي خائنا ضائعا غير مقبول في دعائي وعبادتي، فإن ذلك هو الشقاء الأكبر، وهذا الرجاء كان لفطر إخلاصه لله تعالى، وخشتيه من غضبه وطرده، فإن الحبيب دائماً يخشى من غضب محبوبه، ويعمل على رضاه ويخشى من غضبه، وخليل الله الذي اختاره الله تعالى خيلاً.

وقال: . . . وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، كان أشد ما يخشاه غضب ربه، وأن يرد عبادته فيشقى بهذا الرد، وقال: {عَسَى}

الدالة على الرجاء تواضعًا لله واستصغارًا لعبادته، وكان بهذا المخلص البر الحبيب المحبوب؛

إذ غلب الخوف ليصلح أمره وأنه إذ اعزّلهم حرم من أنس أهله، فوهبه البنين والذرية.(5) {عسى ألا تكون بداع ربى شقياً} أي: عسى ألا تكون شقياً بسبب دعائي لربى؛

لأنه تبارك وتعالى لا يُشقي مَنْ عبده ودعاه، فإن أردتَ المقابل فقلْ : الشقيُّ مَنْ لا يعبد الله ولا يدعوه. (6)

{عَسَى أَنْ لَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيقًا} أي: عسى الله أن يسعدني بإجابة دعائي، وقبول أعمالي.

وهذه وظيفة من أيس من دعاه، فاتبعوا أهواهم، فلم تنزع فيهم المواجهة، فأصرروا في طغيانهم يعمهون، أن يشغله بصلاح نفسه، ويرجو القبول من ربه، ويعزل الشر وأهله.(7)

والشقي: الذي أصابته الشقاوة، وهي ضد السعادة، أي هي الحرمان من المأمول وضلال السعي.

وأطلق نفي الشقاوة والمراد حصول ضدها وهو السعادة على طريق الكناية إذ لا واسطة بينهما عرفاً.

ومثل هذا التركيب جرى في كلامهم مجري المثل في حصول السعادة من شيء.

ونظيره قوله تعالى في هذه السورة في قصة إبراهيم {عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} أي عسى أن أكون سعيدا، أي مستجاب للدعوة.

وفي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- فيما يرويه عن ربه في شأن الذين يذكرون الله ومن جالسهم: «هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم» أي يسعد معهم.

وزاد على الإعلان باعتزال أصنامهم الإعلان بأنه يدعوا الله احتراسا من أن يحسبوا أنه نوى مجرد اعتزال عبادة أصنامهم فربما اقتنعوا بإمساكه عنهم، ولذا بين لهم أنه يعكس ذلك يدعوا الله الذي لا يعبدون.

وعبر عن الله بوصف الربوبية المضاف إلى ضمير نفسه للإشارة إلى انفراده من بينهم بعبادة الله تعالى فهو ربه وحده من بينهم، ف بالإضافة هنا تفيد معنى القصر الإضافي، مع ما تتضمنه الإضافة من الاعتزاز بربوبية الله إياه والتشريف لنفسه بذلك.

وجملة {عَسَى أَلَا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} في موضع الحال من ضمير {وادعوا}، أي راجا أن لا أكون بدعاء ربِّي شقيا..

وفي إعلانه هذا الرجاء بين ظهاراً لهم تعریض بأنهم أشقياء بداعِةَ آلهِهم.(8)

اعلم أنه ما خسر على الله أحد فإن إبراهيم عليه السلام لما اعتزلهم في دينهم وفي بلد़هم واختار الهجرة إلى ربه إلى حيث أمره لم يضره ذلك ديناً ودنياً، بل نفعه فهو عوضه أولاداً أنبياء ولا حالة في الدين والدنيا للبشر أرفع من أن يجعل الله له رسولاً إلى خلقه ويلزم الخلق طاعته والانقياد له مع ما يحصل فيه من عظيم المنزلة في الآخرة فصار جعله تعالى إياهم أنبياء من أعظم النعم في الدنيا والآخرة، ثم بين تعالى أنه مع ذلك وهب لهم من رحمته أي وهب لهم من النبوة ما وهب ويدخل فيه المال والجاه والأتباع والنسل الطاهر والذرية الطيبة ثم قال: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْهَا} ولسان الصدق الثناء الحسن عبر باللسان بما يوجد باللسان، كما عبر باليد بما يعطي باليد وهو العطية، واستجابة الله دعوته في قوله: {وَاجْعَلْ لَّيْسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخْرِينَ} [الشعراء: 84] فصييره قدوة حتى ادعاه أهل الأديان كلهم.(9).

أجل الكتب وأفضلها وأعلاها، هذا الكتاب المبين، والذكر الحكيم، فإن ذكر فيه الأخبار، كانت أصدق الأخبار وأحقها، وإن ذكر فيه الأمر والنهي، كانت أجل الأوامر والنواهي، وأعدلها وأقسطها، وإن ذكر فيه الجزاء والوعيد، كان أصدق الأنباء وأحقها وأدلها على الحكمة والعدل والفضل..

وإن ذكر فيه الأنبياء والمرسلون، كان المذكور فيه، أكمل من غيره وأفضل، ولهذا كثيرا ما يبدئ ويعيد في قصص الأنبياء، الذين فضلهم على غيرهم، ورفع قدرهم، وأعلى أمرهم، بسبب ما قاموا به، من عبادة الله ومحبته، والإناية إليه، والقيام بحقوقه، وحقوق العباد، ودعوة الخلق إلى الله، والصبر على ذلك، والمقامات الفاخرة، والمنازل العالية.

فذكر الله في هذه السورة جملة من الأنبياء، يأمر الله رسوله أن يذكروهم، لأن في ذكرهم إظهار الثناء على الله وعليهم، وبيان فضله وإحسانه إليهم.

وفي الحث على الإيمان بهم ومحبتهم، والاقتداء بهم. (10)

الهؤامش

(1) أيسر التفاسير، أبو بكر الجزائري: 2/414

(2) البحر المحيط: 8/39

(3) تفسير ابن عجيبة، البحر المديد: 3/465

(4) تفسير الألوسي: 12/84

(5) زهرة التفاسير: 9/4653

(6) خواطر الشيخ الشعراوي: 1/5562

(7) تفسير السعدي: 1/494

(8) التحرير والتنوير، ابن عاشور: 16/51 بتصريف يسبر

(9) تفسير الرازي: 10/319

(10) تفسير السعدي: 1/494

المصادر: